الإسلام دين الفطرة والحرية

للأستاذ محمود عبد العزيز محرم

رحم الله الأستاذ عبد العزيز جاويش فقد أمضى عمره مكافحا دون وطنه ودون دينه . وخرج من الدنيا كما خرج المجاهدون أمثاله من غير نسب ولا جاه ولا مال . وحسبه من مجد الدنيا وزخرفها أن يذكره الناس من بعده بكل خير وجمال ومعروف ، وأن يبعثوا إليه فى مثواه الأخير بتحيات عاطرة خارجة عن حدود المادة وحدود الضرورة ، إنما هى تحية روح إلى روح ، جزاء ما قدم للدين والوطن من نفسه وماله ونشاطه

لم تكن حياة هذا البطل المجاهد سهلة ولا ميسرة ، وهو لم يرد أن يقنع فى حياته هذه بما ييسر لكثير من الناس ، فيرضى به ، ويقبل عليه ، ولا يرى بأسا فى الركون إليه ولو إلى حين ، ويكفى نفسه مشقة الجهد والبذل والدءوب . بل أرادها حياة واسعة فى مجال واسع ، حتى يستشعر لذتها وبهجتها ، كلما ضرب هنا وهناك فى فجاج الأرض وأقطار المعمورة ، وكلما جرد قلمه مناضلا عن وطنه الذى ذل تحت أقدام المستعمرين . وكلما سود الصحائف فى تبيان أهداف دينه وأغراض الدعوة الإسلامية المباركة

وما كان الإنجليز ليرضوا عن هذا الوطنى الحر والمتدين عميق الإيمان ، فطاردوه من مكان إلى مكان . وكانوا وراء كل محاولة لإيذائه أو إعنائه أو إخراجه من وطنه مصر . ولذلك لم يكد يستقر به المقام فى هذه البلاد . فكان دائما يضطر إلى الاضطراب فى بقاع أخرى من العالم ، يجاهد فيها فى سبيل وطنه ودينه ما أتيحت له الأسباب والوسائل ، فإذا ماسنحت فرصة لرجوعه إلى الديار مرة أخرى ، رجع غير محس ضجرا ولا خوفا ولا ضعفا ، واستأنف جهاده الذى لاينقطع إن فى مصر وإن فى غيرها ، وعاد إلى التحرير والكتابة فى الصحف التى كانت ترحب بما يكتب وتفسح له فى صفحاتها مكانا محمودا

وقد رأس عبد العزيز جاويش تحرير (اللواء) بعد مصطفى كامل ، وأخرج مجلة (الهداية) لإفهام المسلمين أسرار القرآن وهو فى مصر ، ولما أبعد إلى تركيا أعاد إصدار هذه المجلة ، وأصدر مجلة (الهلال العثمانى) ومجلة (الحق يعلو)

وقد حوكم أكثر من مرة بسبب مقالاته الوطنية اللاذعة فى اللواء ، كمقاله (دنشواى أخرى فى السودان) ، وكمقاله (ذكرى دنشواى) ، وكمقدمته لكتاب (وطنيتى) الذى وضعه على الثاياتى

واشتغل بعض الوقت بالتعليم . وتولى منصب المفتش الأول للغة العربية . وكان أستاذا للعربية بجامعة أكسفورد . وعين مراقبا عاما للتعليم الأولى وأدخل عليه إصلاحات كثيرة ، ووضع أساس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وأعاد إصلاح كلية

يتخذه كل بلد عربى — بل كل بلد إسلامى — لكفاح فرنسا . وكفاح العالم الاستعمارى الذى يسندها

وأول إجراء فى نظرى يجب أن يتخذ هو إقصاء السيحيين بحمد هذا العالم من حياتنا الفكرية والشعورية . إن لم يمكن إقصاؤهم من حياتنا السياسية والاقتصادية . لأن قوى الاستعمار تسندهم ، وتمكن لهم فى وظائف الدولة وفى الأسواق ودوائر الأعمال

إنه لا بد أن نتحرر فكريا وشعوريا من عبادة «العالم الحر» . العالم المتحضر ، العالم الذى يغتال الزعماء ويمثل بجثثهم فى نذالة . والذى يلقى بالجرحى إلى الكلاب المتوحشة لتنهشها . والذى يتجمع كالوحوش الهائجة على شاب ملون فلا يتركه حتى والدماء الغزيرة تتفجر من فمه وأنفه ورأسه

وحين تتحرر مشاعرنا من عبادة هذا العالم المتعفن . وحين تتجمع أحقادنا المقدسة ضد هذا العالم ، حين عسى ونصبح وهذه الأحقاد المقدسة تغلى فى عروقنا .. حينئذ سنعرف كيف نتخلص من العبودية . إن عبودية الضمير هى التى تخضعنا . فلنتحرر منها أولا ، ولنخرس كل صوت ، ولنكسر كل قلم يحدثنا حديث العبيد ، العبيد الكثيرين المنتشرين فى مصر والعالم العربى

سيد قطب

صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد إليه بإدارتها

وأسهم فى جميع التبرعات وإرسال الأسلحة وتهريب القواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالى . وحين أعدت قوة من الجيش التركى فى سنة ١٩١٥ لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزى اشترك فيها

وإذا ضاقت به مصر خرج إلى تركية أو ألمانية أو سويسرة وأصدر مجلة (العالم الإسلامى) الوطنية فى تركية . وأصدر مجلة فى سويسرة ومجلة فى ألمانيا .

من هذا ترى أن الرجل كان شعلة من النشاط الدافق . وكان نشاطه منوعا فحينا يكتب فى الصحف . وحينا يصدر المجلات بلغات مختلفة . وحينا يجمع التبرعات ويسهم فى تحرير الوطن الإسلامى من الغزو الأجنبى . وحينا يصلح برامج التعليم ويشرف على بعض فروعه ونواحيه . وحينا يكتب محررا وطنه صابا لعناته على المستعمرين وأعوانهم . وحينا يكتب مدافعا عن الإسلام شارحا دعوته مبددا للشبهات التى يثيرها أعداؤه . وهو حينا فى مصر . وحينا آخر فى تركية أو ألمانية أو سويسرة أو إنجلترة وكان يوجه كل هذا النشاط إلى الخير ، لايألو فى ذلك جهدا ، ولا يرى بابا إلا طرقه ، غير طامع فى منصب أو مال أو جاه

وفى الحق أن الأستاذ عبد العزيز جاويش كان من الأبطال المجاهدين ، الذين أخلصوا لله وللوطن من غير أن يعلنوا عن أنفسهم وجهادهم ، ومن غير أن يطلبوا على مافعلوا أجرا ولا جزاء ، حتى تخطاهم إلى الظفر والفوز كل مهرج دعى أفاق

وكتاب (الإسلام دين الفطرة والحرية) الذى ألفه الأستاذ عبد العزيز جاويش يتفق وطبيعة مؤلفه المكافحة . فالمؤلف لم يرض بالذل ولا بالاستعمار ولا بالخنوع ، ولم يرض بالقيود التى تعوق الإنسان عن أداء رسالته التى تؤهله لها فطرته ، فهب مناديا بالتحرر من الاستعمار والجهل والطواغيت . والكتاب كذلك لم يرض بالظلم الواقع على الإسلام ، ولا بالدعاوى الفارغة التى يتهم بها زورا ، ولا بالتقليد الذى حد من قدرة المسلمين وجعلهم آلات من غير وعى ولا إدراك ، فكان هو الآخر صوتا ناطقا بما للإسلام من حق مجحود ، وبما له من ميزات سامية تحمل الناس فى رفق على العدل والإنصاف والحرية والكرامة

ولكى نفهم قيمة هذا الكتاب ، وهو كتاب قيم لامراء ، يجب أن نعرف أن الفترة التى كتب فيها هى الفترة التى كان الاستعمار يطرق بمطرقته الآثمة كل معاقل الحرية والأمان والنور فى مصر . كان يحاول أن يشككنا فى قدرتنا ، وفى اقتصادياتنا ، وفى علمنا ، وفى ديننا ، وفى معنوياتنا التى نستند إليها فى الظروف العصيبة والمحن الملة . وكان هذا ، ليخلو له وجه البلد ، فيصنع مايشاء ، ويوجهه إلى حيث يريد . وكان يتابعه فى ذلك كثير من أبناء الوطن من المسلمين وغيرهم . وكان هو يعتمد على هؤلاء المشايعين له فى تحقيق أغراضه وإذلال البلاد وإهانتها ، ممثلا ذلك فى زعمائها الأحرار ، ودينها ، وأخلاقها ، ومواردها كلها . وفى ذلك الحين شن المستعمرون والمبشرون والمقلدون من المسلمين على الإسلام حربا واسعة . واتهموه بكثير من الاتهامات الباطلة ، فألقوا فى قلوب المسلمين وعقولهم أن الإسلام لم يعد يصلح أساسا لحياة أمة حرية بالتقدير والاحترام . ولم يكن المسلمون الأكفاء ليرضيهم هذا التجديف فوقفوا له واعترضوا طريقه . وقفوا فى وجه الاستعمار ، وفى وجه المبشرين ، وفى وجه المقلدين من أبناء الإسلام ، وفى وجه الجهل بشؤون الدين وشؤون الحياة عامة

قيل إن الإسلام انتشر بالسيف ولم ينتشر بالحجة والاقتناع ، وقيل إن الإسلام أباح للمسلم أن يعمد إلى الطلاق ليتخلص من زوجته دون قيد ولا شرط . وقيل إن الإسلام رضى عن الرق وأباحه . وقيل إن نبى الإسلام لم يكن إنسانا سويا حين تزوج كثيراً من النساء ، وحين تزوج امرأة زيد بعد طلاقها . وهذه كلها موضوعات دار حولها البحث ، وعرضها كتاب (الإسلام دين الفطرة والحرية) عرضا مفيدا ، وأبان عن وجهة الإسلام فى هذا كله ، وأظهر الناس على حقائق الأمور فيما يتعلق بعدل الإسلام وإنصافه وحكمته ومراعاته صالح الأفراد والجماعات فى كل قوانينه وأصوله ، فلم يكن دينا إباحيا ولا ظالما ولا قاهرا بالسيف ولا غابنا الإنسان حقه وحريته .

وإذا كان للصليبيين والاستعماريين عذر فيما يدعون ، فإنه لاعذر للمسلمين الذين طمس الجهل والغرور على عيونهم وبصائرهم ،

والذين يجرون وراء الأوربيين متابعين لهم فيما يرون من رأى ويصطنعون من مذهب . وقد جدف علماء المسلمين كثيرا فى تفسير القرآن ، وفى تأويل الحديث ، وفى الفهم عن موارد الإسلام النقية ، حتى كانوا — من حيث يعلمون أو لا يعلمون — عونا لأعداء الدين ، بل كانوا أشد إيذاء له وتكديراً لصفوه ، فاتخذت أقوالهم وأعمالهم حجة على الإسلام لا حجة له « إن النقائص التى مثلت بالإسلام فى أعين غير أهله ، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح ، ميزانا لتقدير قوانين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسدباب الاجتهاد ، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ، ثم يحارب الله فينسب إليه ماليس من دينه فى شىء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا إلى الزلفى منه ، ومن أحمق أذعن لم يرض من اليسر مارضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون »

والدعوة الإسلامية دعوة تهذيبية اجتماعية إصلاحية . ولكن كثيرا من المسلمين لم يرموا إلى هذه الغاية فى تفسيرهم القرآن الكريم ، ففسروه على وجوه مختلفة ، لا على هذا الوجه الذى يؤدى إلى غايته الرفيعة . منهم من فسره تفسيرا علميا فلسفيا مستوحيا الحقائق العلمية والنظريات الفلسفية . ومنهم من حشاه بالإسرائيليات التى لا تغنى كثيرا ولا قليلا . ومنهم من عنى بالنكات البلاغية والفوائد النحوية . ومنهم من جعل للقرآن ظاهرا وباطنا ، فالظاهر للعوام ، والباطن للخواص ، مع أنه قرآن عربى صريح واضح . ومنهم من أول بعض الآيات تأويلا سيئا يصرفها عن غرضها الذى سيقت له إلى أغراض أخرى ليست من الإسلام فى شىء

هذه الجهود المختلفة فى تفسير القرآن ، لم تكن على بصيرة من هدف الدعوة الإسلامية ، ولم تكن تستق من منابع الإسلام الصافية ، ولذلك ضلت الطريق السوى فى خدمة الإسلام والمسلمين ولو أنفق المسلمون جهودهم فى الاستنارة البصيرة ، والاجتهاد القويم ، وشرح أهداف الإسلام كما يرسمها القرآن والحديث ، لما كانت هذه الدعاوى المزورة التى يقصد بها الإزراء على الإسلام وعلى نبيه وعلى مبادئه وغاياته

إن الإسلام يجل الحرية . ذلك لأن أنسامها تنفس عن الصدور والعقول والأفئدة ، وترقى بالإنسانية مصعدة فى مدارج الكمال ، وتضفى على أعمال الإنسان وأقواله وأفكاره وشاح الشخصية الأصيلة . وقد بسط الأستاذ عبد العزيز جاويش موقف الإسلام من الحرية بسطا رائعا لا يخلو من تعمق وفهم لأسرار الشريعة الغراء . وهو يستدعيك إلى التسليم بما يقول حتى فيما يرى من رأى مخالف لرأى جمهور العلماء . وهذا الخلاف نفسه يجعلك تؤمن بأن الرجل نقى السريرة لا يرى إلا إلى عزة الإسلام والمسلمين

لم يقصر الإسلام فى ذات الحرية ، بل دعا إليها ، وجعلها أساسا لبناء المجتمعات وصيانة الأفراد ، وأنحى على القلدين باللوم العنيف ، وراح يحاور بالدعوة إلى التفكر والتدبر ، دون مشايعة لرأى موروث أو فكرة بذاتها ، وقرر أن الذين لا يستخدمون أبصارهم ومسامعهم وقلوبهم فيما خلقت له هم كالأنعام بل أضل « ألهم قلوب لا يفقهون بها ، أم لهم أعين لا يبصرون بها ، أم لهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » « وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله ، قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وأكثر من هذا أن الإسلام لم ير الإكراه فى العقيدة ، بل ترك الحرية لكل إنسان يختار من العقائد والمبادئ ما يشاء « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

وإذا كان لا إكراه فى الدين ، ولا إكراه على اتباع عقيدة معينة ، فلم أباح المسلمون قتل المرتد ؟ ولم شنوا هذه الحروب فى صدر الإسلام على الذين شقوا عصا الطاعة وكفروا بالدين أو ببعض مبادئه ؟ وهنا تجد الأستاذ عبد العزيز جاويش يجيب فى صراحة تامة أن المرتد نوعان : نوع ارتد عن الإسلام أو بعض مبادئه من غير أن يعلن حربا أو يساند عدوا أو يدل على عورة فى الجبهة الإسلامية ، وهذا لا يجوز قتله ، لأن آيات القرآن الكريم لم تشرع حكما يجوز أن نؤاخذهم على أساسه ، بل إن الإسلام يرى عدم الإكراه فى العقيدة ولا على اتباع فكرة بعينها ولو كان هو هذه العقيدة أو تلك الفكرة . ونوع ارتد عن الدين ، وصار حربا

عليه ، وأعان الكفار على المسلمين، ودل على واطن الضعف فيهم وهذا يقتل ويحارب ، لأن الشرائع المنزلة والوضعية قبل الإسلام وبعده أباحت قتل المحارب واتخذته عبدا . أما الذى حدث على عهد الخليفة أبى بكر ، من قتل المرتدين ولو لم يحاربوا ، فرجع ذلك إلى أن الإسلام كان فى أول عهده ضعيفا يخشى الانتقاض عليه والإيقاع به ، ولذلك قتل كل خارج عليه بعد أن اعتنقه ، حتى يأمن على نفسه فى أول أمره

وقد حمل الإسلام الزنادقة على حكم المرتدين . فالزنادقة قتلوا فى أول الأمر زمن على بن أبى طالب ، لأن الإسلام كان يخشى الدسائس ، وكان يعمل على أن يؤمن حياته وحياة أتباعه فى هذه الفترة الأولى من حياته . أما بعد أن آمن ، وقوى ، واشتد ، ولم يعد يخشى المكائد ولا الانتقاض ، فلا يجوز أن يقتل الزنديق ، كما لا يجوز أن يقتل المرتد ، وإن كانا يتصحان ويستتابان أبدا ، عملا بمبدإ الحرية الذى أقره الإسلام وحماه ودعاه إليه

والإسلام لا يخشى العلوم المختلفة ولا المعارف الكونية . وهو الذى وسم فلسفة اليونان وحكمة الهنود ومعارف الفرس . ودفع المسلم إلى استقبال العلم من مشارق الأرض ومغاربها ، عن المسلمين وعن غيرهم ، لأن العلم الصحيح لا وطن له ، ولأن العلم الصحيح من الحقائق الكونية التى لا تبدل ، ولأن الحرية أصل كريم فى الحياة الإسلامية « لذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم ، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقليات من الرياضية والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة إليها ، والترغيب فى البحث عن دقائقها وأسرارها ، وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال : الكندى ، ومحمد بن موسى الخوارزمى ، ويحيى ابن أبى منصور ، والعباس بن سعيد الجوهرى وأحمد بن كثير الفرغانى ، وجعفر بن محمد البلخى ، ونصير الدين الطوسى ، وثابت ابن قرة ، وعمر الخيام ، وابن سينا ، وابن رشد ، وأبى الحسن ابن الهيثم ، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والأثقال والموسيقى وغيرها »

لم يكن الإسلام إلا دينا حرا ، يرعى العقل ويحترمه ، ولا يميل إلى إلزام أحد شيئا . فهو واسع العلوم المختلفة والفلسفات المتباينة ، وهو لا يقتل المرتد المسالم ولا الزنديق الذى يهادنه . وهو يندد بالمقلدين ودعا إلى التفكر والتدبر وإلى العلم الصحيح والنظر السليم. وأنت تعلم أن الكفار فى أول العهد بالدعوة المحمدية قد طلبوا من النبى — على سبيل التحدى والتعجيز والشاقة — معجزات كونية ، كأن يأتى بالله والملائكة قبيلا ، وكأن يرقى فى السماء ولن يؤمنوا لرقيه حتى ينزل عليه كتاب يشهد بصدقه ورسالته ، وكأن يكون له بيت من زخرف وجنات من نخيل وعنب قد فجرت الأنهار خلالها تفجيرا . وأنت تعلم أن النبى لم يجبهم إلى هذا ، لأنهم يعجزونه ، ولأنهم لن يؤمنوا مهما أتوا من المعجزات ، ولأن الإسلام لا يريد أن يكبتهم ويحملهم على اعتناقه والإيمان به ، إذ هو دين الحرية والاختيار الخالص . ولكن كيف يكون ظهور المعجزة إلزاما وحملا للمشركين على الإسلام ؟

الحقيقة التى جرت عليها السنة الإلهية فى الأمم السابقة ، أن الأمة من الأمم إذا طلبت معجزة وحققت لها هذه المعجزة ، ولم تؤمن بها وتنزل على مقتضاها ، عجل الله لها الخسف والعذاب والإبادة . ومعنى هذا أن الأمة كانت بمنطوق المعجزة ومفهومها تحمل الناس على الإيمان برسالة الرسول الذى ظهرت على يديه ، وإلا فالعقاب والإهلاك . أما الإسلام ، فلأنه دين الحرية الذى لا إلزام فيه ولا حمل ، ولأن المعجزة الكونية كان يتبعها الإيمان أو العذاب — فلم يستجب إلى ماطلبه المشركون من هذه المعجزات الكونية ، حتى لا يكون ثمة حمل على الإيمان به ولا إلزام للمشركين أن يتبعوه

هل لنا أن نعرف وجوه الجمال فى هذا الدين التى كثر ما أغضينا عنها ! وهل لنا أن نعرف المجاهدين الأبرار الذين أنفقوا أعمارهم وحيويتهم فى سبيل الدين والوطن ! وهل آن أن ترجع الحقوق المهضومة إلى أصحابها فيتسنموا الذروة اللائقة بهم ! إن الدين قد أساء إليه أبناؤه المرتزقون ، وإن الوطن قد غلب على أمره بفعل المهرجين أدعياء الوطنية ، وها نحن أولاء الآن فى عهد بوادر الكرامة والعدل والحرية ، وما أظن هذا العهد يحرم المخلصين جزاءهم ، ويجحدهم فضلهم ، بل يرفعهم إلى مكانهم فى الخالدين — الأحياء منهم والأموات سواء

محمود عبد العزيز محرم